كامو ونظرية التمرد

بقلم : جون كروكشانك
ترجمة : محي الدين إسماعيل

اثار كتاب كامو « المتمرد » ، عند نشره عام ١٩٥١ ، اهتماما عميقا واسع النطاق . اذ تحدثت عنه مختلف الطوائف السياسية على تباين شياتها ، باستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي ، فاعتبره البعض بمثابة نظرية بارزة تناهض الماركسية، ورأى فيه اخرون مصدرا كامنا من مصادر البسالة المصفاة ، من الجناح اليساري ، أعيد اليها شبابها . ومن المهم ايضا ان « المتمرد » قد استنزل الرعود من صحيفة « الازمنة الحديثة » وانه كان السبب المباشر في الجفوة التي وقعت بين كامو وسارتر . اما الترجمة الانكليزية التي صدرت هنا في هذه البلاد * ، فلم تثر اي اهتمام يمكن قياسه بذلك الاهتمام ، والحقيقة ان كثيرا من المعقبين قد وجدوا فيه اثرا تجريديا غير واقعي ، يجنح لان يهرف بحديث مسهب عن قضايا ليست قريبة المنال . وهكذا نظر ايضا للترجمة الانكليزية لقصة سيمون ده بوفوار « الحكماء » باعتبارها نموذجا غير مشروع ، اجتثت أصوله من حارات سان جرمان دي برى . فهي قصة تعالج موضوعات مماثلة ، ولكن من زاوية اخرى ، كما تعالج ايضا قصة الخلاف بين سارتر وكامو . اما اسباب مثل هذا الموقف فواضحة ، فهذه الاسباب تتعلق بذلك الالحاح الموجود في فرنسا منذ عام ١٧٨٩ على التقاليدالثورية كما تتعلق ايضا بالتفكير التجريدي ، وبوجود حزب شيوعي ضخم ذي تاثير في فرنسا مابعد الحرب . هذا من ناحية ، اما من الناحية الاخرى فان هاتيك الاسباب تتعلق بالنزعة التجريبية الانكليزية ، وبانعدام اشتراكية مثالية في انكلترا ، وبالملكية البريطانية ، وبالتالي بالانعزال الجغرافي والعقائدي عن القارة الاوروبية ، اما القضايا التي عالجها كامو في كتاب « المتمرد » فهي هامة بحد ذاتها ، في نظري ، وهي الى جانب ذلك جوهرية لفهم الطقس الذهني الذي نشا في فرنسا بعد الحرب . وفضلا عن ذلك فان تلك القضايا تشتمل على تطور طريف لما وراء النتائج العقيمة التي كان قد انتهى اليها كامو في « أسطورة سيزيف » . وهذه النقطة الاخيرة تجعل من الضروري مناقشة هاتيك القضايا هنا . هذا وان تفهم هذه القضايا واهميتها بالنسبة لكامو ، توضح لنا ، ولو بصفة غير مباشرة ، مكانة كامو بين معاصريه من الفرنسيين .

فلقد ارتسمت خطوط الفكر عند كامو بصورة اوضح من الناحيتين التاريخية والسياسية في « رسائل الى صديق الماني » ، وتشير الرسالة الاولى من هذه الرسائل الاربع والتي كتبت عام ١٩٤٣ ، بعد صدور « اسطورة سيزيف » الى شيء من عدم الرضا عن النتائج العملية الممكنة التي تنشأ عن الموقف العبثي ، فهو يعزو نشوء النازية ـ او على الاقل نشوء الفلسفة التي تكمن وراءها ـ الى طرح الوطنية الميكيافيلية في ذلك الفراغ الاخلاقي الذي نشأ بسبب الاحساس الحاد بعبث الوجود. ومن هنا يمكن تفسير النازية بانها شكل من اشكال التمرد على العبث ، ولكنه تمرد لم يستطع التمييز بين التضحية بالذات والاسرار Mystification بين الطاقة والعنف ، بين القوة والقسوة ، وفي الرسالة الرابعة التي كتبت عام ١٩٤٥ ، يعالج كامو القضية بصورة اكثر تفصيلا ، اذ هو يقر بانه قد اتفق مع عدد كبير من الالمان في الثلاثينات من هذا القرن ، بشأن تشخيصهم للانسان العابث ، كماشاطرهم ايضا تحررهم من اوهام التجريدات الاخلاقية ، بيد ان الكثير ممن سلكوا هذا السبيل في المانيا ، قد مضوا في شرعة الغاب : شرعة القوة والعنف والخداع ، ولم يحسب اي حساب للانسان ،ففقدت الحياة الانسانية رخيصة ، واخذ الهروب من اللااحساسية الواضحة بالوجود شكل « السياسة الواقعية » ومغامرات القوة ، واذ كان كامو يكتب هذه الرسائل في الاربعينات من هذا القرن ، فقد وجد نفسه منتظما في حركة المقاومة لمقاتلة الالمان . فلقد بدأ من ذات الاسس العبثية عند النازيين ، ولكنه تحول الى المعسكر المعارض . والايضاح الوحيد الذي يستطيع ان يقدمه لنا ، هو رغبته العارمة في العدالة ، واعتقاده بان عبث العالملا يمكن ان يثبت الا عنطريق الاشارة الى بعضالمدركاتالقبلية للتماسك والشعور . فالانسان نفسه يمتلك قيما ومعاني ، هي بالضبط، قائمة لان الانسان مخلوق قد باءت رغبته في هذه الامور بخسران دائم . والاخلاقيات التي يحس بالحاجة اليها احساسا عميقا ، والتي من شانها ان ترضيه من حيث هو كائن انساني ، هي التي تسمح للانسان اخيرا ، بان يشجب انعدام الاخلاقية الالهية في الكون ، ويقول كامو بانه هو والنازيين قد استنبطوا شكلين متباينين للتمرد من مبدأ العبث ، لان النازيين كانوا قد تقبلوا الخيبة بسهولة ويسر ، حيث هو لم يتقبلها .

ان هذا التحول في تفكير كامو ، يدعونا الى النص على تعليقين ، فعلينا بالدرجة الاولى ، ان نوضح بان كامو كان دائما يعتبر تاكيد العبث لم يكن سوى مجرد قضية مؤقتة ، اذ يرى فيه موقفا سلبيا يقودنا بالتالي الى توصيات ايجابية . فقد كنت في ١٢ اذار ١٩٣٩ في صحيفة الجيه ـ ربيلكان Alger-Républicain ان التثبت من حقيقة العبث

* يقصد بريطانيا

يمكن ان يكون محض بداية لا نهاية ، انها خطوة في سبيل التأكيد النهائي. وذكر جي. دوبريد في المقابلة التي اجراها معه عام ١٩٥١ انه قال:

« عندما حللت مشاعر العابث في اسطورة سيزيف كنت ابحث عن وسيلة لا عن عقيدة . كنت أمارس يومذاك شكا منهجيا ، كنت احاول اقامة ذلك « المدى النظيف الخالي » الذي يسبق الجهد الانشائي . »

كانت النهليستية المطلقة في اسطورة سيزيف ، امرا سلبيا من الناحية النظرية بالنسبة لكامو . اما من الناحية العملية ـ وهذه هي النقطة الثانية ـ فان الاحداث التاريخية ، سرعان ماأملت هي نفسها الخطوط الرئيسية للتوصيات الايجابية التي كانت جزءا من اهدافه دائما . واكدت ظروف « الاحتلال » ان اخلاقيات عبثية او كمية لايمكنها بأي حال ان تلبي مطالب كامو الانسانية . فقد نجمت هناك اختيارات ومسؤوليات اخلاقية يمكنها ان تعنى الحياة او الموت بالنسبة للاخرين ، وذلك بحسب التفسيرات التي تحظى بها . فان رجلا اخلاقيا بشكل غريزي ككامو بوسعه ان يضع اي « كويزلنغ » او جاسوس على المستوى الذي يضع عليه اي مقاتل من مقاتلي حركة المقاومة . وهكذا فاني اظن ان مثل هذا الموقف الكونكريتي قد عرض الحاجة الملحة للتمرد الايجابي ضد العبث وعرض الشيء الكثير من شكله بأكثر مما عرض من الاغضاء السلبي عن العبث . ويتضمن كتاب « رسائل الى صديق ألماني » التعبير النموذجي الاولى عن « امتحان الضمير » الذي طال البحث عنه ، والذي بداه كامو بعد ذاك .

وهذه الرسائل التي اتبعتها ضغط الظروف السياسية يومذاك ، تكون الحلقة بين الموقفين المتباينين بين مقاليه الاساسيين « اسطورة سيزيف » و « المتمرد » ، وهذه المقالة الاخيرة « المتمرد » ، هي نتاج اكثر عمقا نجم عن « امتحان الضمير » الذي اشير اليه اول ما اشير في هذه الرسائل ، انه نتيجة التساؤل الذاتي الصابر الدقيق في الوقت الذي كان كامو يتمتع فيه بشجاعة تؤهله لاعادة امتحان كثير من الاستنتاجات التي كان قد توصل اليها . انها محاولة مخلصة لمواجهة التناقضات الواضحة وتمحيصها بصورة اشمل وأدق . وهي الى ذلك ، تتضمن تحليلا منقحا لمضامين العبث الاخلاقية . وسرعان ماقاد هذا المشروع كامو من حالة التساؤل الذاتي الى قضايا اوسع . فهو اذ بدأ مفاهيمه الخاصة عن العبث ، يمضي ليتأمل الارتجاعين réaction الاكثر ايجابية من غيرهما ـ أي التمرد الميتافزيقي والثورة السياسية ـ واللذين نجما ، من الناحية التاريخية ـ عن العبث بشكل او بآخر . واذ يستقصي كامو التمرد الميتافزيقي ـ كما هو معبر عنه في الاداب ـ يعود بعد ذلك الى قضية الثورة السياسية التي ترتبط احيانا بالتمرد الميتافزيقي . ويعزى الرأي القائل بان الثورة تشتمل على القتل والارهاب ، مهما كانت مثالية في اصولها ، الى الفكرة المتسلطة عن « فلسفة التاريخ » التي اتبعتها الميتافزيقية الالمانية . ويستتبع ذلك تشويه في التاريخ وفي القيم الاخلاقية ـ ففي الماركسية حالة عقلانية ، وفي الفاشستية حالة لا عقلانية ، ووبال رهيب في كلتا الحالين . وتنتهي المقالة بالدفاع عن التمرد لا الثورة . بيد ان التمرد هنا ، لم يكن تمرد شعراء وروائيي القرنين التاسع عشر والعشرين ، انه يشبه الى حد كبير تمرد بعض المفكرين الاغريق ، مع التأكيد في هذا التمرد على الانسان . ويبلغ هذا التمرد حد الانسانية المعممة التي تبحث لنفسها عن طريق وسط بين التاليهية deism الكامنة في التمرد الرومانتيكي الميتافزيقي

وبين تاليه التاريخ الواضح في الثورة السياسية العقائدية الى حد التطرف .

والهدف العام من وراء كتاب « المتمرد » مبين في صفحاته الاولى. فهو محاولة لفهم هاتيك الاشكال المعاصرة للعنف واللا انسانية . تلك الاشكال التي تعتمد على أسس أيديولوجية والتي تبشر على نحو ظاهر ، بان هدفها سعادة الانسان . واننا لندرك دونما حاجة الى تذكير من كامو ، باننا نعيش في عالم غدا فيه القتل الجماعي فنا شائعا من فنون الحكومات . وبالرغم من ان هناك من يحتج قائلا بان الافراد قد حصلوا على السلطة او انهم استعادوها ، بهذه الوسيلة ، الا ان هذا « القتل العقلاني » ـ كما يدعوه كامو ـ قد بلغ ذروة لاتطاول في الكمال التكنيكي. وبالاضافة الى ذلك فان هذا القتل تبرره دعاوي اخلاقية لاتبارى ،وتسنده نظرية فلسفية ضافية الجوانب . فالحكومات تؤكد بانها تجزر الناس العاديين بالالوف ، من اجل قضية الناس انفسهم .

وكذلك فهي تدافع عن معسكرات الاستعباد والتهجير الجماعي باسم الحرية ، او كان يقال بان هذه هي مشيئة الشعب . وأظن ان هذا الموقف موقف عابث على طريقة « رقصة المقابر » * . والعنف الذي ينطوي عليه هذا الموقف يوحي الينا ـ على الاقل ـ بصلات مع العابث الذي حدده لنا كامو في كتابه « اسطورة سيزيف » ، على ان القتل والعنف لن يكونا خطأ ولا صوابا ، اذا لم تكن هناك من قيم او معنى .

* macabre هي رقصة الموت او رقصة المصير . وهي رقصة قديمة عرفت عند كثير من الشعوب ، وليس بينها وبين لفظة « مقابر » سوى تشابه عرضي « المترجم »

من منشورات دار الاداب

دواوين نزار قباني

زينة لكل مكتبة

	الثمن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

وعندئذ لايفعل المرء « الخير » او « الشر » الا بدافع من النزوات ،ويقول كامو ان القضية هنا ستبدو محض لا مبالاة اخلاقية ، سواء زاد المرء عدد الاشخاص الداخلين الى «غرفة الغاز » ام كرس حياته لمعالجة المجذومين . ويبدو ان منطق العابث يذهب الى ان القتل وعلم الطب امران مشروعان على السواء . على ان مثل هذا الاستنتاج امر لايمكن ان يأخذ به كامو ، لذا فهو يعمل على اعادة « امتحان منطق العبث » ، فنراه يستعد قبل الخوض في المناقشات التاريخية والسياسية التي يتألف منها الموضوع الاساسي في كتاب « المتمرد » ، بمناقشة استدلالات reasoning تجريدية ، فيما هو يستخرج بعض النتائج الجديدة من فكرة العبثية .

وفي « اسطورة سيزيف » تبدأ المناقشة التي تركزت حول قضية الانتحار ، في نطاق خطوط المنطق الانف الذكر ، وذلك عن طريق الاشارة الى الهدم الذاتي باعتباره نتيجة ثابتة من نتائج العبث . بيد اننا نجد ـ كما رأينا سالفا ـ ان هذه النتيجة ، بعد المناقشة ، ستتخلى عن مكانها لتحل محلها المغامرة العابثة . ويتطلب ذلك مواجهة جريئة للكون العابث من قبل الفرد الذي حكم على الكون بالعبث . اما اقتراف جريمة الانتحار فهو اغضاء عن العبث ـ انه عمل لايأتلف من الناحية الاخلاقية ، ان لم نقل من الناحية المنطقية ، مع المقاومة المهتوكة الاستار التي كشفت منذ البدية عن العبث . والان اذا كان الموقف المتماسك ازاء العبث يتطلب ، حقا ، بقاء وجود الفرد ، فان ذلك يستتبع ، بالتالي ، تأكيد قيمة الحياة الانسانية ، ولو عن طريق المقابلة contrast فحسب . انه موقف شتان مابينه وبين الاقلال من اهمية الحياة اوتجريدها من هذه الاهمية . انه موقف يعطيها اهمية درماتيكية . واذ يتقبل كامو هذه الحجة فانه سرعان ماينادي بان معضلة القتل التي نجمت ـ كما ذكرنا اعلاه ـ قد انحلت كذلك . فالاستدلال الذي يقودنا الى رفض الانتحار يقودنا حتما الى رفض القتل . والمنطق النهائي لهذا الموقف ازاء العبث من شأنه ان يستهجن الهدم الذاتي المضبوط حسابيا ، كما يستهجن القتل العقلاني على السواء .

ان استدلالات كامو ، كما يصوغها هو نفسه ، قد تكون اكثر اقناعا مما ترد في تلخيص وجيز كهذا . فاذا كان الامر كذلك ، فالقضية تبدو ذات حجة واهية . فلئن تقرأ « أسطورة سيزيف » فان معنى ذلك ادراكك بان قضيته تعتمد في اساسها على قياس تشبيهي غير واف . فلقد رأينا ان الحجة المطروحة ضد الانتحار قد اعتمدت على استخدام تعبير « منطق » في شتى المعاني ، وذلك لستر الاختيار الاضطراري تحت قناع الحتمية العقلانية . ويستخلص كامو ، بالاضافة الى ذلك كله ، استنتاجا غير مدعوم من هذا القياس التشبيهي غير الوافي . وما يقوله كامو ، في الحقيقة ، هو انه اذا كان الانتحار امرا غير منطقي فان قتل الاخرين هو ايضا امر غير منطقي . ويبدو ان كامو يخلط هنا بين الخيار الاخلاقي والضرورة المنطقية .

ويبدو ان كامو كان يعي بان حجته هنا غير وافية ، وذلك اذ يشير الى مضامين العلاقات بين العبث ـ الانتحار مرة اخرى . انه يرى تناقضا في تقبل حقيقة العبث ، ويمضي في الدعوة الى الحفاظ على حياة الانسان. انه يرى تناقضا جديدا في تقبل حقيقة العبث ، ويمضي في الدعوة الى الحفاظ على حياة الانسان . وبمجرد ان يتم تفسير العبث على اساس المطالبة بالاستمرار على الحياة ، يظهر فعل الحياة ذاته بالالحاح على الخيار والحكم . غير ان الخيار والحكم لايمكن ان تتم ممارستهما في عالم عابث على نحو لابرء منه ولا شفاء . ففي الحكم والخيار شيء معنى ـ ان هما وجدا اصلا ـ . فاما ان يكون العالم عابثا على نحو لابرء منه ، وانه يحيل الحياة امرا مستحيلا ، واما ان هذا العبث لم يكن على نحو جذري ، كما يبدو لاول وهلة ،ويمكن عندئذ ان تحيى الحياة . فالعبثية الجذرية لايمكن قط ان تصاغ بتعبير عملي حي . فاذا كان العبث مناهضا لفعل الحياة ، فان فعل الحياة ايضا مناهض ، وعلى ذات الاسس ، وللمناقشات التي تدور حول طبيعة هذا الفعل . فبمجرد ان نعبر بالالفاظ عن « فلسفة العبث » فان هذه الفلسفة سرعان ماتقع في تناقضات ، اذ ان هذا التعبير عنها يزعم لنفسه ـ على الاقل ـ الحد الادنى من التماسك في صميم ذلك اللاتماسك الذي يطرحه للتحليل ، فتحليل العبث تحليلا وافيا من الوجهة المنطقية ، ينبغي ان يظل صامتا غير معبر عنه !

ان ادراك هذه الصعوبات ـ ولنا ان نسميها نقائض كامو ✱ ـ هي التي تهيب بكامو ان يعقد المقارنة بين موقفه العبثي الاول وبين الشك الديكارتي المنظم . ومن هنا تراه يقول ان « اسطورة سيزيف » تقدم لنا اسلوبا في الحجج ، ولكنه لاينطوي على اية عقيدة من العقائد . وفي الحقيقة ان « العبث هو التناقض ذاته » . وهكذا يكون لدى كامو من الاخلاص في هذه النقطة مايجعله يعترف بانعدام التماسك الجوهري في « اسطورة سيزيف » . وبحسب هذه الحجة الواردة انفا ، فان الكتاب متناقض تناقضا ذاتيا بمجرد الاقدام على تأليفه . فالحجج التي يعرضها كامو في مقالته هذه عن العبث ـ بحسب مايورده هو نفسه ، ليس فيها محتوى ضئيل الاهمية ، على ان كامو يظل يدعي بان هذه المقالة تمثل التنميط✱✱ «الميثودولوجيا» السلبي الذي يمكنه من التوصل الى بعض الاستنتاجات الايجابية ، ومن هنا يرى كامو القيمة الاساسية والمسوغ لهذه المقالة . والطريقة التي يحصل بها كامو على القيم الايجابية بوساطة منهجه السلبي ، تذكرنا مرة اخرى بديكارت . فلقد رأينا ان ادراك العبث يعني الشك بقيمة الوجود . ورأينا ايضا ان هذا الشك ينبغي ان يمتد في النهاية ليشمل امكانية التفكير في الحياة ذاتها طبقا لاي تفسير نفسر به العبث . ولكن مهما يكن هذا الشك جذريا فان ادراكا حادا للعبث سيظل يلاحقه الى ان ينتهي ذلك الادراك الى عبث ايضا . ثم مهما تكن الاستدلالات القياسية déductions المنطقية التي نستنبطها من العبث ، فانه لاشك بوجود تجربة وراء العبث . وتكون تجربة العبث، بجوهرها ، احساسا بالفضيحة والتمرد . فالعبث يفضح العقل ، ويفضح الحس الاخلاقي ايضا . وهو ينشأ عن ضرب سلبي من ضروب التمرد . وعلى اية حال فاذا ما امعنا في تحليل مثل هذا التمرد ، يتضح لنا بان التمرد لن يكون بمجمله موقفا سلبيا ـ كما يبدو لاول وهلة . وطبقا للحجة التي عرضت سلفا فان التعرف على العبث ، معناه القيام بممارسة العبث باسم بعض القيم التي نستطيع ان نحكم فيها على العبث بانه عبث . ولئن يصبح الانسان مدركا للعبث ، فان معنى ذلك ، ان يتمرد الى

✱ antinomies نقيضه ونقائض ، ويراد بها تناقض المبادىء العقلية وتضاربها . وأول من اعطاها معناها الميتافزيقي هو الفيلسوف « كنت » الذي اراد بها تناقض العقل الخالص وتضارب القوانين والمبادىء العقلية . « المترجم »

✱✱ methodology التنميط او الميثودولوجيا هي علم منهج الابحاث « المترجم »

الحد الذي يقول فيه « كلا » لبعض القضايا ، بأي وجه من الوجوه . ولكن ، لكي يقوم الانسان بهذا العمل فان عليه ايضا ان يقول « نعم » بوجه بعض القضايا الاخرى . ويمكن ادراك العبث عن طريق حركة التمرد التي هي سلب وايجاب ، وهكذا تكشف لنا عملية التمرد ، في باطن الفرد، عن وجود شيء ما يقف العبث مناهضا له . ولا يستطيع احد القول بان جميع القيم تجعل التمرد امرا ضروريا ، ولكن الذي يبدو ، هو ان كل تمرد يبعث قيما جديدة . فقول المرء « كلا » معناه فرض الحدود ، اي ان قيما من نوع معين قد صيغت داخل هاتيك الحدود .

وفي هذه المرحلة من المناقشة ، قد يشيع الغموض في الطبيعة الشاملة لهذه القيم . على ان ثلاث قيم مترابطة ـ على الاقل ـ يكشف عنها « العصيان الميتافزيقي » . فلئن يتمرد الانسان على العبث معناه ، بالدرجةالاولى اعادة اكتشاف الانسان لنفسه. ويكشف العصيان للانسان ايضا وجود جانب من نفسه يعتبر على جانب من الاهمية والخطورة . ويستطيع ان يتعرف على حقيقة جوهره ، باعتباره كائنا انسانيا ، عن طريق هذا الجانب من نفسه ، ويستطيع به كذلك ان يواجه عبث الوجود. فالقيمة الاولى من القيم المشار اليها ، هي ذلك الثمن الانساني الفردي : هاتيك الامكانيات التي لايمكن التعبير عنها وتحقيقها الا عن طريق هذا الموقف . غير ان الفرد قد رأى ان هذا الثمن هو الذي يعين هويته ككائن انساني كعضو في النوع الانساني . وبهذا يرفع من مصيره الشخصي ، كما ينبغي عليه ان يرفع من طبيعة الانسان بوجه العموم . وهكذا يكشف لنا التمرد عن القيمة الثانية التي هي شيء يشبه الطبيعة الانسانية . وبحسب رأي كامو ، فان هذه القيمة تقود بصورة مباشرة الى القيمة الثالثة ـ الى التضامن الانساني ، ويستبدل القانون الكاريتزي هنا ، بقانون اخر خاص به اذ يقول : « انا أتمرد اذن نحن موجودون » . ويلخص القضية بقوله : « وبالرغم من ان التمرد يبدو سلبيا ظاهرا ، لانه لايخلق اي شيء جديد ، الا انه ايجابي على نحو عميق ، طالما هو يكشف عن تلك العناصر الكامنة في الانسان ، والتي ينبغي الدفاع عنها دوما . »

ان هدف التمرد الاخلاقي الكامن انما ينشأ عن هذا المقتبس السالف . فالتمرد الذي يعنيه كامو ، يطوي ، بلا ريب ، في جوانحه هجوما على الاخلاقية التقليدية . ولكنه يفعل ذلك باسم مايعتبره اخلاقيات انقى ، قد تخلصت من أسار المصلحة الذاتية المباشرة . والحافز من وراء التمرد الميتافزيقي هو في جوهره حافز روحي ، حتى عندما يحاول كامو ان يصفه في الحدود المنطقية لاغير . انه روحي ، كقولنا بان التعاليم الاغريقية روحية من حيث هي تدعو الى ان تجعل الروح الانسانية مقياس كل شيء . وطبيعي الا يكون هذا التمرد روحيا بالمعنى الديني الدقيق ، طالما هو يرفض الاقرار بهدف الهي يتخلل الوجود الانساني . ويضع كامو ملاحظتين طريفتين عن علاقة التمرد بالدين ، بعد ان يتعرف على الامكانات الروحية للتمرد ـ بمعناها الانساني ـ .

فهو يوضح ، اولا ، اعتقاده بان التمرد والالحاد لايمكن ان يكونا مرادفين لبعضهما البعض ، كلا ولا حتى مؤتلفين ، بالرغم من انهما يجنحان الى الاندماج ببعضهما البعض . ويقول كامو ان التمرد هو قضية تحد اكثر مما هي قضية نقض . فالتمرد ينبغي ان يوجه ضد حالة من القضايا ، وبالتالي ضد المسؤول عن هذه الحالة من القضايا . والتمرد الميتافزيقي الحادي من الناحية الاساسية « ولعل هذا هو المنطق الذي يكمن وراء بعض الكتابات التي عاصرت كتاب « المتمرد » ، والتي هاجم فيها مارسيل جوهاندو وجود الله ، بالرغم من انه يؤكد وجوده . » وعلى اية حال فان التمرد يتحول الى موقف الحادي ، اذ هو يخضع الله لاحكام انسانية ، ويبدأ بالتعامل معه على اساس الند للند ، وهو يرفض ان يمنحه صفة الحلول في كل مكان . وبمجرد ان تنزع عن الله صفة التعالي يعلن موته :

« تأخذ الثورة ضد الوضع الانساني ، شكل غزوة لايكبح لها جماح ضد السماء ، فيتحول ملك السماء الى سجين ، ويعلن انهياره ، ثم يحكم عليه بالاعدام . »

ان التطور التاريخي لهذه العملية ، من التمرد الى الاستهجان القتال يمكن متابعته على التوالي في كتابات ساد وبودلير ونتشيه . ثم قام كامو بقسط مماثل بعد ذلك في هذا المقال .

وفي المرحلة الثانية ، يمضي كامو ليربط مابين التمرد والمسيحية ، بعد ان يفرغ من وصف الصلة القائمة بين التمرد والالحاد . والاساس النظري لمثل هذه العلاقة قد أشرنا اليه سلفا . اما اذا نص المرء على ان هناك الها هو خالق جميع الاشياء وانه هو المسؤول عنها ، فان الاحتجاج الميتافزيقي يصبح عندئذ خلوا من أي معنى بعد ذاك . وعلى اية حال فقد ارتبط التمرد والدين ، من الناحية التاريخية ، بأوهى الروابط المباشرة . فقد تعاورا اوروبا الغربية ، واختلفا عليها وتناوباها من الناحية الزمنية ، وبالاجمال نجد كامو يذهب الى ان تاريخ المدنية هو بمثابة حالات متتالية من « المصالحة الميتافزيقية » و « التمرد الميتافزيقي » وهناك حالات دينية يحس فيها معظم الناس بانهم على وئام مع وضعهم الانساني ، وانهم يقبلون الاجوبة الرسمية التي يتلقونها من القسس ورجال اللاهوت ردا على اسئلتهم . ويدعو كامو هذه الفترة « بالفترة المقدسة » . وهناك حالات اخرى تخفق فيها الاجوبة الرسمية في ارضاء الانسان ، فيحسن العدد من الناس بانهم غرباء فيمغترب.وفي هذهالظروف تكونفترةالتمرد.ففي الفترةالتيسبقت التي سبقت الظروف تكون فترة التمرد . ففي الفترة التي سبقت المسيحية وفي المراحل الاخيرة من المدينة الاغريقو ـ رومانيا كان هناك حزب غريزي من التمرد ضد اوضاع الانسان قد استعلن ظاهرا . واتخذ أبيقور هذا الموقف ثم تلاه لوقريطس . ومع نمو المسيحية ، استبدلت المصالحة مع الارادة الالهية بالتمرد ، وذلك بصورة تدريجية ، لاسيما خلال الشخص الوسيط وعقيدة المسيح . واستمر الشكل المسيحي « للفترة المقدسة » عدة قرون ، وفي القرن التاسع عشر بدأت «المصالحة» تحتل مكان التمرد . وفي الحقيقة ان فرنسا كان لها في القرن الثالثعشر رائد من رواد التمرد الجديد الجاحد المتطرف بجحوده ضد الله ، وكان الرائد هو المركيز ده ساد . حتى اذا ما جاءت الحركة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر ، رأينا ان بعض المتمردين الميتافيزيقيين ـ من امثال فيني ـ قد ربطوا صورة المسيح « التصالحية » بقضيتهم ، فأكدوا « الآمه » وصرخات « يأسه » على الصليب ثم « موته » (والالم واليأس والموت هي بالضبط اسس التمرد ضد الالوهية) . ولقد عامل اولئك المتمردون الميتافزيقيون المسيح على انه ضحية من ضحايا يهوه ، وبهذا اخلوا الطريق لتجديد الهجمات على الله . اما الشعراء في اعقاب القرن التاسع عشر فقد تمردوا ايضا وبحثوا احيانا عن اجوبة تغنيهم عما ترويه المسيحية عن الواقع النهائي . واخيرا في القرن الحالي نجد

ان السريالية قد زادت من نغمة التمرد ، وذلك عن طريق التأكيد مجددا على عبث الوجود .

ويحق لنا القول ، باننا نعيش الان في حالة من التمرد خلفت وراءها تاريخ قرنين . وهذه هي تقاليد التمرد التي يمضي كامو في وصفها . لذا فهو يتحول في هذه النقطة ، من مناقشة نظرية الى قصة تاريخية عن التمرد . وبعد بضع صفحات من التعليق على تمرد ابيقور ولوقريطس اللذين سبقا العهد المسيحي ، يقفز كامو عبر «الفترة المقدسة» المسيحية الى تمـــرد ساد .

ومن العسير حقا ، ان نفسر تفصيلا تعليقات كامو على التمرد اعتبارا من ساد . ولكن بضع نقاط تنبغي الاشارة اليها بايجاز على اية حال . ان لكامو حسا مخلصا طيبا ، بالرغم من الزي الشائع الذي يذهب الى ان انجازات ساد باعتباره كاتبا قد بولغ فيها مبالغة عظيمة في هـذا الوقت . ويرى كامو ان لساد اهمية من حيث هو مثال ، كما هو نذير لسوء الفهم الخطر المتحمل الوقوع لطبيعة التمرد الحقيقية . ولقـد فعل ساد ذلك بداع من غرائزه ، فانتهى الى دفاعه الشهير عن« الجريمة الشاملة ، ارستقراطية النزعة الكلبية ، ونزوة الرؤيا » . فالحرية التي يطالب بها هي اجازة ليست بذات حدود . وكنتيجة لذلك ، غرقت القيم الاخلاقية التي ينبغي ان تظل جزءا لا يتجزأ من التمـرد ، في طوفان من عنف عصيان كامو . فالمصالح الذاتية العنيدة والدفاع المتنامي عن الشر قد اضعف قيمة التمـرد منذ ايام الرومانتيكيين حتى بودلير . فتمـرد هؤلاء يختلف اختلافا كليا عن تمرد العالم القديم ، شانه في ذلك شان تمرد ساد . وان تحليل كامو الرائع للاديب « الداندي » في القـــرن التاسع عشر ، يظهر لنا ان الفروق بين هذا التمرد وذاك لم يكن سوى انحـدار .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان دستوفسكي قد وقف موقف المدافع عن ضرب من ضروب العصيان كان قد اعجب به كامو كما اعجب بتمرد ابيقور ولوقريطس. انه عصيان يعترف بالقيم خلال تطلعه الـى سيادة العدالة للانسان بدلا من استبداد الرحمة الالهية . وتلك هـي الوظيفة الاولى للتمرد بالنسبة لكامو . ويعزى ذلك كله الى الادراك الذهني الرفيع لفكرة التمـرد عند دستوفسكي والتي قادت بطله ايفـان كارامازوف الى صراع رهيب بين المنطق النهلستي للعبث (كل شيءمقبول) وبين المطامح الاخلاقية لعصيانه الاصيل . فمجرد ان يتفحص كارامازوف النتائج الكاملة للعبث ، يجد ، على رعب منه ، ان جريمة القتل امـر مقبول من الناحية المنطقية ، وان الفضيلة لا يمكن تبريرها بشكل ايجابي. واخيرا فهو يقبل التمـرد الاخلاقي ، ويفسح المجال لكي يقتل ابـوه ويضع حدا لجنونه . ويدعى كامو ان هذا التمرد المنطقي والقتل العقلاني المرتبط به ، قد ارتفعا الى درجة الالوهية في المذهب الستاليني .

وكان نتشه قد انشغل انشغالا اساسيا بهذا التمرد المنطقي . فلقد ناقش هذا الموضوع في حدود التساؤل عما اذا كان من الممكن ان يستمر الانسان في الحياة فيما هو لا يعتقد باي شيء اطلاقا . ويجيب نتشه على ذلك بالايجاب . ويقدم هذا الجواب في آثاره المتاخرة عـن طريق التبشير بانكار منظم بدلا من الشك المنظم . ويقوده ذلك ، بالتالي، الى عقيدة « السوبرمن » ، وارادة القوة ، والولاء للارض وان الانســان قد يستطيع ان يتحول الى اله موقت . ويستنتج كامو استنتاجا عاما من نهليستة نتشه بقوله انها نهليستة صافية ، ولكن في تاثيرها السم الزعاف. فقد استلهمتها النازية، بالرغم من ان كامو يتحوط فيقول ان ذلك قد حصل بسبب سوء فهم نتشه . هذا وان نغمة التعليقات التي أوردها كامو عن نتشه ودستوفسكي ، توضح لنا الى اي مدى تأثر فكر كامو بهذين الرجلـين .

ولعل اطول تعليق اورده كامو بشان انحراف التمرد المستمر نحو النليستة ، هو في ذلك القسم الذي يناقش فيه لوترمون ورامبـــو والسرياليين . ففي ذلك التعليق تحليل حاد للتناقضات القائمة بـين النهليستة والامتثالية Conformism الوبيلة التي نجدها عند لوترمون ورامبو . وبالرغم من ان هناك تناقضا بمعنى من المعاني ، الا ان كامو يدعي ان هذا النوع الخاص من النهليستة مشـدود الـى الامتثال . وتناقضات النهليستة هي موضع نظر بصورة تفصيلية عنـد السرياليين ، لاسيما وانهم قد زعموا ، في فترة من الفترات ، بانـــهم يعملون على دمج التمرد الميتافزيقي بالثورة السياسية . ولقد كان التمرد في القرن الفائت ، منذ ايام الرومانتيكيين حتى نتشه ، فرديا ، غـير ان بعض السرياليين من امثال ايلوار واراغون ، قد زعموا بانهم سيعملون على المصالحة ما بين فوضاهم الذاتية ومباديء الماركسية الموضوعية . ويتابع كامو هذا الدمج بين التمـرد والثورة الى اقصاه عند النهليستة السريالية . وهذه النهليستة لا تطالب بخرق اللغة وطرائق الفـكر العقلانية وحسب ، بل هناك قول مأثور يذهب الى ان مهمة الســـريالي الاصيل هي ان عليه ان يخرج للشارع ومسدسه بيده ليطلق النـــار اعتباطا على العابرين . فهذا الضرب من العنف الذي شهر بوجه امتثال اعضاء المجتمع ، نظريا على الاقل ، قد تركز ، لفترة ما ، على المجتمـع باعتباره احدى المؤسسات . ثم جاءت الماركسية بعد ذلك والتي فهمها السرياليون فهما ناقصا ، فاعتبروها وسيلة لتحرير رغباتهم وتطورها . واخيرا جاء « حديث الشيوعية المزدوج » فقدم برهانا على خرق حرمة الكلمات (الحرية ، الدمقراطية ، ارادة الشعب ! ...) وذلك على نحو يزيد كثيرا عما لديهم من تجارب سابقة في اللغة . اما كامو فيرى فـي النهليستة عاملا مشتركا في التمرد السريالي والفكرة السريالية عـن الثورة .. « ان هؤلاء المجانين يريدون اي نوع من الثورة ، يريـدون اي شيء يحررهم من عالم التجار ، ومن عالم التوفيق والمصالحة الذي هم مرغمون على العيش فيه . ان ثورة احلامهم شيء لا يمكن تحقيقه عن طريق المهارة الفنية والتفصيلية او عن طريق التنظيم الطويل الاناة . ان اسطورة ما قد قدمت لهم العزاء ، ولهذا فلم تكـن القضية ، بالضرورة شيئا قليل الخطورة على اية حال . والحقيقة ان بريتون قد نظر الـى الثورة السياسية على اساس انها هي فعلا صناعة يدوية للنهليستـة السريالية . اما اذا نجحت الثورة في ازاحة الظلم الاجتماعي ، فانهـا ستتثبت عند ئذ من ان الظالم الاجتماعي لم يستطع ان يحجب الظـالم الميتافيزيقي في الكون . وستعمل النزعة العقلانية في المجتمع الماركسي، بالدرجة الاولى على التخفيف من عبثية الوضع الانساني . ومن هنـا ، نجد ضراعا عميقا يدور بين الاهداف السيا ـ اقتصادية ، وبين مطامح السريالية الخائبة . ان كامو اليوم (**) مناهض للماركسية ، وقـد قادته نهليستته الى اقتراح عودة موقتة للاخلاقية التقليدية التـــي تذكرنا بالامتثالية المتاخرة عند لوترمون ورامبو . فصرخته المســتمرة « اننا نريد ، وسنصل الى ما وراء ايامنا » هي صرخة توحي البنـا

(*) الامتثالية نقيضة التمرد . « المترجم »

(**) كتب قبيل مصرع البير كامو

عودة .. الى الرفاق المتعبين

او

وداعا يا غجرية

تسأل الغابية السمراء عما خلف صمتي
وتعريني بنظره
فأحسن الحرقة الحرى بحلقي
غاض نطقي
أجلد الاحرف ،وجوعا ، أمزق
أتحرق
وارى عينا لعيني تحدق
أقبض الظلمة في كفي واغرق
غجريه
يا لهاث الرمل ، يا انساني الضائع
في اصداء موال حزين
الحكايات التي تروين في أعماق
اعصابي عادت تتململ
عن كليب وجراحات المهلهل
فاعيدي كل ما كان ولا تقسي
على جساس من اجل خيانه
كلنا كان يخون ..
. . . . . .
آه كلا لا تقولي
ليس بي مس جنون
واغفري لي
أترى تغفر ذنبا غجريه
غجريه
غجريه
كذب من قال في عينيك اسرار خفيه

مثلما تسعى على الارض الديادين الغبيه
انت تسعين .. خواء ، ملء عينيك بلاهه
وغباء مطبق ابكم يقعي وتفاهه
عنفوان النهد لا يغري
وجوع الساق لا يغري
وما في الكهف من مكنون سر
رحلتي كانت ضياعا
فوداعا ...
واذا ما كان امسي
تافها عافته نفسي
واذا كان مصيري
شاطيء الصمت الكبير
حيث لا حب ولا حقد
ولا بسمة ، لا لوعة حسره
يغرق النسيان ما ضج بنبض
العرق من شك وحيرة
فانا الجمت في جنبي مسعور السؤال
حين ادركت المآل
وعزائي
رفقة لم يصلبوا جساس من اجل خيانه
يسألون الحب ، يعطون محبه
يغفرون
كلنا كان يخون
يا غبيـــه
لست الا غجريه

دمشق ـ **تيسير السبول**

بان السريالية لا يمكن ان تكون حركة من الحركات السياسية ، فالسريالية بالنسبة لكامو ، الذي يبدي تعاطفه الواضح مع بريتون ، تبدو وكانها حكمة مستحيلة التحقيق .

ان هذا الاستقصاء للتمرد خلال هذين القرنين قد قاد كامو الى استنتاج يذهب الى ان هذا التمرد ينتهي الى ان يصبح سما زعافا للحرية والحياة ، وذلك بسبب اخفاقه في المحافظة على التوتر الواجب توافره في اي احتجاج ميتافزيقي . والقيم الاخلاقية ، ستظل باقية طالما كان هناك توتر . ولكن بمجرد ان يصرع التمرد ويموت ، فعندئذ لا مناص من العنف والنهليستة . وان ما يدعوه كامو بدعارة المطلقية قد ادى دائما اما الى الدفاع عن الانتحار (اي الى الرفض المطلق للعبث)، واما الى الدفاع عن القتل (اي الى القبول المطلق للعبث) . والشكل الاخير من اشكال التطرف هو الذي ساد وشاع ، ثم خان طبيعة التمرد الميتافزيقي بعد ذلك . ثم يعود كامو ليمتحن نموه في صوره الثورة السياسية ، او « التمرد التاريخي » ـ كما يسميه ـ

ويستخدم كامو تعبير « التمرد التاريخي » لانه يشير الى طبيعة الصلة القائمة بين التمرد الميتافيزيقي والثورة السياسية . ان « موت » الله قد تبعه تاليه الانسان . فهذا المخلوق المؤقت ، قد رفع الى المرتبة التي كانت تنسب اليها الآلهة سابقا ، والتي كانت خارج نطاق الزمان.

وهكذا فقد استبدل التمرد الافقي المتعالي الموقوت بالتعالي العمودي مما هو فوق الموقوت او التاريخ . واذ هو اخفق في الحصول على الخلاص الابدي بدأ يبحث عن الخلاص خلال الزمان ، فكانت نتيجة ذلك الثورة السياسية التي تمثل تشويها للتمرد الميتافزيقي الاصيل ، وذلك عن طريق تأليه التاريخ(*) ـ التتمة على الصفحة ٥٦ ـ

(*) يختلف مثقفو الطليعة العربية مع هذا الاستنتاج الكاموسي (نسبة الى كامو) اذ يرى المثقفون الثوريون العرب أن بداية تمردهم المنطلق من الذات . هو بداية رفع سياق التاريخ ـ حتى بمعناه الميتافيزيقي ـ والذي يحتوي الوقائع التي يتألف منها المصير التاريخي ، الى مستوى الثورة الميتافيزيقية . وبمعنى اخر ان تمردهم هذا له اصول ميتافيزيقية يستمدونها من حيوية التاريخ لا من لازمنة الحقائق التجريدية الثابتة. وبهذا المعنى لا يرى هؤلاء المثقفون الثوريون العرب ان الثورة السياسية الصاعدة في التاريخ تشويه بل تجسيد للتمرد الميتافيزيقي . ومن هنا نجد ان الثورية العربية تطرح اعظم اعتراض بوجه الماركسية التي تستمد ثوريتها من حقائق الطبيعة الجامدة ومن تجريدات القوانين الفزيقية ، لا من حيوية الوجود . وعلى اية حال ، فالثورية العربية نظل تنتمي الى مصدر « الوجود » الانسان الحي ، لا مصدر الطبيعة الجامدة .

« المترجم »

كـامو ونظريـة التمرد

تتمة المنشور على الصفحة ٢٧

فالثورة خيانة للتمرد لانها تتجاهل الحقيقة القائلة انه ليست هناك قضايا مطلقة بالنسبة « للتمرد » اكثر مما هي بالنسبة لاخيه الاكبر أي « العابث » . فالثورة السياسية تتمسك عن عمد بمطلق اخلاقي ينكر « موت » الله ويحوله الى التاريخ . وهذه الخيانة للتمرد ، قد نشأت عنها نتائج شديدة الخطورة . فالتفكير التاريخي والقضايا المطلقة الافقية من شأنها ان تشجع الناس على التضحية بالحاضر من اجل مستقبل مفترض افتراضا . وهكذا يظل هناك اغراء للاخذ بالوسائل المؤقتة من اجل التعجيل بالاهداف التاريخية ، أغراء شديد الوطأة والبأس . والاكثر من ذلك كله ، ان النظرة التاريخية تنتج حتما الفكرة القائلة بان القدرة على تحقيق الاهداف هو بحد ذاته تبرير كاف للقيام بالعمل ، وهذا هو السبب الذي انتهى بالثورة الى المقصلة وعمليات التطهير باسم الحرية . فقد تعمل الرغبة في الحرية على تدشين الثورة ، بيد ان الحرية تتوقف بعد ذلك ، والى امد غير محدود ، من اجل تحقيق الاهداف ، ويومئذ يبدأ عهد الارهاب . ولذا ، فان كامو يقول بان التمرد من حيث هو تعبير عن الوعي الانساني امر طيب اما الثورة من حيث هي مشروع تاريخي فأثمة خاطئة . * ويأخذ كامو قصة الاثم هذا من احداث الثورة الفرنسية ، حتى احداث الثورة الروسية . ولم يكرث نفسه قط ، بالاسباب السياسية والاقتصادية للثورة ، بل جل مايكرث نفسه به هو التعويل على نظرية الثورة في بعض الموضوعات الكبرى للتمرد الميتافزيقي .

ويبدأ كامو البحث في قتل الملوك في فرنسا ، ويلاحق اصوله ، ليرد نظريات هذا الموضوع الى روسو ، ولهذه الاصول وشائج تربطها بالطهارة الانسانية ، وبسمو الارادة العامة للشعب ، وذلك التقليد الذي تحدر من روسو . اذ ان روسو ، وهو من المؤلهة ، لم يستطع ان ينسب الخيبة والياس الانسانيين الى كائن عاقل اعلا ، بل هو يضع ، بدلا من ذلك، اصول الشرور في تنظيم المجتمع الراهن . وتلك هي مزاعم روسو القائلة بان المجتمع قد افسد تلك الطهارة الانسانية الاولى . ثم على يد سان ـ جوست اتسعت افكار روسو هذه واعطيت صفة التطبيق العملي لا سيما تلك الافكار التي عبر عنها في كتابه « العقد الاجتماعي » . وغدا « المطلق » الجديد هو العقل الذي يسير جنبا الى جنب مع الفضيلة ، ولم يعد هو ذلك الاله العاقل ، كما كان من قبل . وهكذا نجد حتى ايام الثورة الفرنسية ان السماء لم تخل خلوا تاما ، بالرغم من ان « موت » الاله قد ترك فجوة هائلة . واستهدف سان ـ جوست من وراء ذلك اقامة ما اسماه « بالاتجاه الشامل نحو الخير » ، ثم اقيمت ، بعد ذلك ، عبادة العقل . ويومئذ وقد حل العقل والفضيلة محل الله ، واعدم الملك ، فقد اصبحت السيادة للارادة العامة والشعب . وهكذا يرى كامو في اعدام لويس السادس عشر نقطة تحول في مشروع الثورة ، لان ذلك الاعدام كان تفسيخا لروحية التاريخ وأنسنة « جعله انسانا » الله . وكل مابقي من الله محض مبادىء تجريدية في سماء فارغة .

غير ان هذه المبادىء بما تتمتع به من طبيعة تجريدية ، ليست كافية لتأمين حكم الفضيلة والعقل الشاملين . وبما انها محض تجريدات ، فهي ينقصها المضمون الكونكرتي الانساني الاخلاقي الذي يتمتع به التمرد الاصيل .

وحيث انها تجريدات ايضا ، فهي تتجاهل الطبيعة الانسانية القابلة للوقوع في الخطأ . فان كلمة « خطيئة » تعبير غير مقبول ولا مستساغ لدى كامو . ولكنه يقول : « سيأتي ذلك اليوم الذي يصطرع فيه الايديولوجي مع السيكلوجي » وهكذا فانه حتى ثورة ١٧٨٩ ، التي اكدت على الفضيلة والعقل ، قد عادت ، بعد ذلك ، فاستساغت الظلم والارهاب .

واذا كانت المبادىء الاخلاقية التجريدية لاقبل لها بوقف هذه الحركة، فان ازاحة هذه المبادىء ستجعل الامر اكثر سوءا من ذي قبل . فلقد طالما قبلت ارادة الشعب العامة ، ووضعت بمثابة المثال ، ففي الامكان ان يظل الفكر والفعل انسانيين ، ان لم يكونا هما كذلك في واقع الامر . على ان هناك تفسيخا اخر للانسانية في فكرة الثورة جاءت به فلسفة هيغل عن التاريخ . يعترف كامو بان هيغل قد أسيء فهمه في معظم الاحيان، لاسيما من جانب اليسار . وهو يقر ايضا بان اخطر مبادىء هيغل لها مايعاكسها في اجزاء اخرى من اثاره : « في هيغل ، كما في كل فكر عظيم ، مايمكن عن طريقه تصحيح هيغل » . والحقيقة الهامة هنا هي ان تفسير نظام هيغل ، سواء كان دقيقا ام لم يكن ، قد هبط هبوطا نهائيا مطلقا بالمثال الثوري ، ثم سادت ، بعد هيغل ، النظرة القائلة بان الانسان لايستطيع توجيه مصيره ، بل هو محمول حملا على السياق التاريخي ، وان مايظنه فعلا حرا ان هو في الحقيقة ، الا جزء من خط سير الاحداث التي لا محيد عنها. وان تأليه التاريخ على هذا النحو ـ وذلك هو ما وقع ـ معناه ان الغالب هو بالضرورة دائما على خطأ . ومن هنا ، نفذ التاريخ حكمه فيهم .

وهناك من يندفع مع التاريخ الى الامام ، وهناك الاخرون الذين يروح عليهم التاريخ * . ولقد كان الفوضويون الروس عام ١٩٠٥ يعملون على تكوين مايدعوه كامو « بارستقراطية التضحية » اما اولئك الذين قادوا الثورات الاخرى ، فقد انشأوا مايمكن تسميته باسم « ارستقراطية النجاح » .

وكان مقضيا على « ارستقراطية النجاح » ان تضع كل القيم التي تكن لها الاحترام في السياق التاريخي .

« ... وفجأة تمثلت الحقيقة والعقل والعدالة في تكون الوجود . بيد ان الايديولوجية الالمانية اذ أسبغت الحركة الابدية على هذه القيم ، عادت فحسبت ان هذه الحركة هي الطبيعة الحقيقية في تلك القيم ، ووضعت استكمال هذه الطبيعة ـ ان صح التعبير ـ في نهاية السياق التاريخي.»

* ويشير المؤلف هنا الى الخلاف بين كامو وسارتر في هذا الموقف ، ونعود فنشير ايضا الى خلاف الثوريين العرب مع كامو في هذه المرحلة من التفسير . فالثورة قاتلة الملوك ومهشمة اوثان ارجلها من صلصال ورؤوسها ايضا ، هي جماع التعبير عن الوعي الانساني .

« المترجم »

* الجناح اليساري الهيغلي « الماركسي » هو الذي افاد من هذه النظرة الخاصة للمصير الذي دعوه بالضرورة او الحتمية التاريخية . اما الثوريون العرب فيرفضون حتى التعاون بين المصير والفرد على النحو الذي نراه عند نتشه واشبنغلر وهيغل ، بل هم يعودون اصلا الى الموقف الايجابي ازاء المصير الذي يصنعه الفرد بيديه . وحيث ان نظرتهم راديكالية اصيلة في ثوريتها ، فمعنى ذلك ان الشعب هو الذي يصنع مصيره بيديه .

« المترجم »

وتبعا لذلك ، فان كامو يضيف الى ذلك قوله بان هذه القيم لم تعد صدى الطريق ، بل اصبحت هي المصائر ذاتها . وبمجرد ان وضعت هذه القيم في مستقبل مفترض افتراضا ، أزيلت هاتيك الوسائل التي نستطيع ان نحكم بها على الاساليب التي تحقق هاتيك القيم . ومن هنا نرى المصدر الحقيقي للشر في التمرد التاريخي . فالوسائل ـ في حد ذاتها ـ قد أزيلت عن نطاق الحكم الاخلاقي . ولم تعد هناك سوى تلك القيم التي لم تتحقق بعد ، والتي كان عليها ان تخدم الاغراض التي يمكن استخدامها من اجل التبرير او الاستهجان . ونتيجة لذلك ، بدأ الحكم على الافعال يجري على اساس نجاحها ، لا على اساس قياسها بالنسبة للقيم الاخلاقية . وبذلك عادت الاخلاق امرا مؤقتا ، وبدأت تتحول طبقا لمطالب الوضع التاريخي « ومثال ذلك استهجان جرائم ستالين بعد وفاته من قبل رفاقه واتباعه » . هذا ، وان وضع القيم الاخلاقية في المستقبل من شأنه ايضا ان يفسح المجال للاخذ بالاثم الانساني العام . وهذا هو احد الفوارق الكبرى التي تميز سان ـ جوست الذي تقبل مبدأ الطيبة عند روسو ، وبين الثوريين المتأخرين الذين تقبلوا فكرة هيغل عن الاثم . ومن الطبيعي ايضا انه بمجرد ان يؤخذ بفكرة الاثم عند الكائنات الانسانية ، فان هذه الكائنات ستعامل عندئذ طبقا لتلك الفكرة. والحقيقة ان الثورة السياسية قد قادت الى القتل والتدمير في كلتا الحالتين . فعلى المرء ان يقتل لكي يقضي على تلك الاستثناءات الفردية التي تلطخ وجه الطهارة الانسانية . ويقتل المرء احيانا ، في عصر من عصور الاثم ، لكي يوطىء لعصر من عصور الطهارة الانسانية . ويضع كاموهذه النقطة بلباقة اذ يقول : « ينبغي ان نحطم اولئك الذين يحطمون الاصنام ، او الذين يحطمون من اجل خلق الاصنام . »

وهنا تنجم معضلة لم يجب عليها كامو اجابة شافية . فهو يقدم لنا عددا من الامثلة لكي يبين لنا اننا عندما نعالج التمرد في الحدود التاريخية انما نشوهه ونهبط به ولكن يبدو ان كامو يعزو هذا الهبوط التاريخي الى الصدوع الميتافزيقية حينا ، والى التطبيقات العملية الخاطئة حينا اخر . ويبدو احيانا كما لو انه يقول بان المفكرين من امثال هيغل ونتشه قد اساءوا فهم حدود التمرد الاصيل ، ثم رضخوا بعد ذاك لاغراء النهلستية ، ويجنح كامو حينا اخر الى الاخذ بالنظرة القائلة ان هؤلاء المفكرين قد اسيء تفسيرهم من قبل رجال عمليين ، حتى انه ليس هناك من نظام حكومي استطاع ان يسمح لهم بالتعبير عن انفسهم تعبيرا مرضيا « راجع الحجة الجدلية لبرودون ، من ان الحكومة لايمكن ان تكون ثورية لمجرد انها حكومة » ، وسأعالج هذه القضية في شيء من التفصيل . اما الان فتجدر الاشارة الى ان النوع الثاني من التفسير هو الذي يفسر لنا انعطاف كامو الواضح نحو الفوضوية ، وتأييده الاخير للنقابية الفوضوية ، وذلك من خلال استنتاجاته الايجابية في كتاب « المتمرد » .

ويمكن ملاحظة هذا الاتجاه ، في الاهمية التي يسبغها كامو على الفوضويين الروس . وينبغي ، على الاقل ، ان يقال بان هؤلاء جميعا قد تخطوا حدود التمرد الاصيل ، ومع ذلك فقد عوملوا معاملة فيها الكثير من التسامح . ويتضح ذلك بصفة خاصة عند الارهابيين الشباب من امثال كاليف ودورا برليانت وغيرهما ممن اغتالوا الفراندوق سيرجي عام ١٩٠٥ ، وهم من اولئك الذين يدعون باسم « القتلة الودعاء » في كتاب « المتمرد » ، و « العادلون » في مسرحية كامو التي تحمل نفس الاسم . حتى ان كامو ليزعم بان هؤلاء هم الذين يقدمون المثل الاعلى لروح التمرد الاصيل . فهو ، اولا ، يراجع بصورة مقتضبة ، افكار تلك الاجيال المتعاقبة من الفوضويين الروس الذين جاءوا قبل القتلة الودعاء . ثم يعلق بعد ذلك على الديسمبريين وبلنسكي وبيزاريف وباكونين ونيكاييف، وينقد نقدا لاذعا نوعا ما كتاب « كاتكزم الثوري * الذي كتبه باكونين ونيكاييف . ففي الوقت الذي يمقت فيه كالييف ورفاقه القتل ، ولا يتقبلون ضرورة القتل الا في حالة التضحية بالنفس ، نجد ان اناسا من امثال نيكاييف قد استخدموا القتل وسيلة لتسنم السلطة . وهنا يقول كامو عن القتلة الودعاء :

« ... والنصر الذي كانوا قد احرزوه على حساب الرهق قد اصيب بالخيانة في نهاية المطاف . ولكنهم تمكنوا ، عن طريق تضحيتهم ورفضهم المتطرف ان يقدموا شكلا محسوسا لاحدى القيم او لفضيلة جديدة ، مازالت حتى يومنا هذا تقف بوجه الظلم وتمد يد العون للتحرر الاصيل.»

فلقد كان ارهابيو عام ١٩٠٥ الذروة التي بلغتها حوادث الاغتيال او محاولات الاغتيال التي استمرت ثلاثين عاما ضد رؤساء الحكومات في اوروبا والولايات المتحدة . ويقول كامو ، ان هناك عدة مئات من الشبان والشابات البواسل قد وقفوا انفسهم ، وهم في اعماق هذه النهلستية ، لقضيتهم وحاولوا ان يخلقوا القيم التي طالما تعطشوا اليها بوسائل البنادق والقنابل والتضحية بالارواح . وقبلوا التجريم والموت عن عمد واصرار من اجل ان يضمنوا انتصار المثل التي يحملونها . ويعلن كامو ، لوصف موقف هؤلاء ، تصريحا يتضمن تأييدا من جانبه يبدووكأنه يتعارض مع تحليله السابق . فهو يقول : « ان المستقبل هو عالم التعالي الوحيد لاناس يعيشون بلا اله . » ان هذه « النزعة التاريخية » قد اخذ بها لتكون عاملا كبيرا يقودنا الى الاسفاف بفكرة التمرد عند ممارسة الثورة ، ويبرر كامو تصريحه هذا بقوله انه بالرغم من ان هؤلاء الشباب النهلستيين قد ظنوا انهم يعملون على تحقيق قيمهم في المستقبل ، الا انهم في الحقيقة والواقع ، قد تسببوا في ميلاد قيم حقيقية للتمرد وذلك بوساطة تلك الطبيعة التي اتسمت بها افعالهم . فلقد أرصدوا ذخيرة ضخمة من الاخوة وجربوا احساسا عنيفا بالتضامن ، كما مارسوا هذا الاحساس . ثم عادوا فرفعوا هذه القيم الى مرتبة التضحية بالنفس بمقدرة تستثير الاعجاب . واكثر من ذلك نراهم وقد اخذوا بوسيلة الاغتيال السياسي كطريق لتحقيق اهدافهم لم يتعرضوا للنسوة والاطفال بخلاف مافعله الماركسيون المتأخرون .

ومع ان كامو لم يكن ليتحدث الا بالحق يوم ان وصف الشكوك الاخلاقية المستمرة التي جعلت من كالييف والاخرين شخصيات تكاد تكون فذة غير متكررة ، الا ان عنصر الدفاع عنهم كان جليا في هاتيك الحجج المتعددة.. « فبالرغم من انهم عاشوا حياة الارهاب ، الا ان الارهاب ماانفك يعرضهم للدمار والبوار . » ومرة اخرى نقول ، ان هذا القول ، لم يكن ، بحد ذاته ، تبريرا للارهاب ،بل ان كامو يفسره على اساس ان هؤلاء كانوا يحيون تووتر التمرد الاصيل تناقضه . ان عدم اكتراثهم بحيواتهم قد عاش جنبا الى جنب مع اكتراثهم بحيوات الاخرين . ثم لم يلبثوا ان وجدوا ان العنف وسيلة لا مناص منها . ومن هنا فقد عجزوا عن تبرير الارهاب ، ولكنهم تقبلوا جميع النتائج التي تتضمنها هاتيك النقائض ، اذ انهم احتفظوا بحدى كل نقيضة من النقائض .وبذلك انحازوا عن الثوريين المتأخرين الذين كتبوا احد العناصر في توتر

* Catechism الكاتكزم هو الاسلوب التعليمي الذي يتبع طريقة السؤال والجواب .

« المترجم »

التمرد ، واطلقوا نظرات باردة على العنف والموت . وكان كالييف ودورا برليانت ورفاقهما قد ذهبوا الى ان التمرد ينبغي ان يتفادى الاكتفاء العقائدي ، اذا ماريد له ان يحتفظ بخصائصه الحقيقية . وعن طريق الرغبة في التضحية بأرواحهم ، وجدوا ضربا من ضروب تلك النقائض التي كان عليهم ان يحتفظوا بها في حيواتهم .فهم قد تقبلوا الموت باعتباره ثمنا يدفع لقاء عنصر الاثم الكامن في تلك النقائض . هنا يبدو لي كامو ، مرة اخرى ، رجلا رقيق الحاشية عندما يتعامل مع « التضحية » ، حتى لكأن التضحية من شأنها ان تزيح الاثم ! وبعد ذلك ، فان تقبل هؤلاء للموت على ايدي الارهابيين ، بشكله الذي لامناص منه ، انما كان بمثابة الانتحار العمدي . وعلى هذه الاسس ، ينفسح المجال امام اعتراضات كامو الاولى طالما كانت النقيضة لا « تتقرر » الا بعد ان يقلع عن معاناتها في الحياة . فاذا لم « يلغ » العبث على هذا النحو ، فلا مجال لالغاء مناهضة التمرد . وعلى اية حال ، ففي الامكان النظر جديا الى ان الموت يلغي الموت . ولكن الحاح كامو على القيمة الانسانية الذاتية سيجعل هذا الامر قضية مستحيلة ، لان الشخص الذي يقوم بالاغتيال ، لايستطيع ان يلغي حادثة الاغتيال التي قام بها عن طريق تقبله الحكم عليه . هذا وان كامو لايدع اي مجال لامثال هذه الاعتراضات من اي سبيل . انه يضع حدا لارهابيي عام ١٩٠٥ باشارة اخيرة الى ادوارهم باعتبارهم الممثلين الحقيقيين للتمرد . « لقد ظل كالييف يشك حتى النهاية ، بيد ان الشك لم يمنعه من القيام بالعمل . وهذا هو السبب الذي جعله يقدم لنا انصع مثال من أمثلة التمرد . »

يوضح لنا تحليل كامو للارهاب الفردي ، ان هذا النوع من الارهاب ينطوي على قيمة تجعل منه موقفا ان تلميحا اكثر مما تجعل منه سياسة عملية ، حتى ليشك المرء بان هذا الارهاب يتعلق بوضع حل للمشاكل العاطفية باكثر مما يتعلق بالبناء السياسي والاقتصادي القائمين . وهذا الشق الاخير (اي تغيير البناء السياسي والاقتصادي القائمين) هو الذي اخذ به اتباع ماركس مرة اخرى . وفي الوقت ذاته ، حصل التحول من الارهاب الفردي الى ارهاب الدولة . وعند بروز ارهاب الدولة هذا ، الغيت نقائض التمرد ، ثم قبل القتل باعتباره من الامور المشروعة ، وغدا « الموقف التاريخي » هو الحكم الفيصل في الاخلاق ، واستكملت التقنية عدتها لتصبح وسيلة من وسائل السيطرة على الحكم ، ولم تلبث الدولة ان اصبحت هدفا للعبادة . وهذا الجانب من جوانب خيانة التمرد هو الذي اولاه كامو عنايته في الفصل التالي من فصول كتابة « المتمرد » مبتدئا ببعض الملاحظات المقتضبة عن الثورات النازية والفاشية في القرن الحالي . فهذه الثورات ، لم تكن ثورات بالمعنى الذي كانت فيه الثورتان الفرنسية والروسية . فتلك الثورات لم تكن مرتكزة الى تأليه التاريخ ، اذ نظرت الى التاريخ من حيث هو مناسبة متفاعلة مع القوى الهوجاء ، وبذلك الهت اللامعقولية اكثر من تأليهها العقل . ومع ذلك ، فان هذه الثورات ، تعتبر جزءا من تاريخ التمرد ، منذ ان زعم موسوليني وهتلر انهما قد استمدا اراءهما من هيغل ونتشه . فهذان الدكتاتوران ، قد مثلا ، على نحو واضح جلي ، التأليه المتزايد للدولة الذي انتهت اليه الثورات دائما . ثم انهما اقاما ارهابا لا معقولا ، خلا من اية قيم ما عدا مقياس النجاح .

واخيرا فان الشكل العقلاني من اشكال الدولة ، ذلك الارهاب الذي استمدت اصوله من هيغل ومارس ، قد وجد له تعبيرا في الثورة الروسية والدولة الشيوعية . وهنا ، واثناء هذا التطور الايديولوجي ، يتابع كامو الخط خلال سلسلة من التعليقات على تعاليم ماركس . ويبدو ان هذا القسم من اقسام كتاب « المتمرد » له علاقة بسيرورة الكتاب ونجاحه في اوساط اليمين الفرنسية . غير انه تجب الاشارة الى ان نقد كامو لماركس لم يكن من ذلك النوع الذي يحظى بالقبول في هذه الايام . بيد ان هذا النقد يقدم لنا انطباعا نادر المثال ، يعرفنا بأن كامو قد قرأ ماركس قراءة مستفيضة حقا . فنقد كامو لماركس كان ثمرة دراسة حديثة ولم يكن مجرد رفض عابر . بل ان كان كامو يبدي اعجابه ببعض وجوه التفكير عند ماركس . فهو يمتدح ، مثلا ، استهجان ماركس للنفاق الاجتماعي السائد في بورجوازية القرن التاسع عشر . ويقول كامو ان ماركس قد كشف لنا بشكل مقنع ان فضائل الاسرة التي تنتمي الى الطبقة الوسطى ، تلك الفضائل التي تمتدحها الصحافة المحافظة انما تعتمد على نوع من الاقتصاديات لا تلبث ان تزج برجال ونساء من ذوي الحظ التاعس الى اعماق المناجم ، واشار ايضا الى ان المباديء الاخلاقية السائدة في تلك الحقبة لم تكن مباديء زلفى ونفاق ولكنها مباديء مضللة تضليلا . واتم ماركس كشف القناع عن الموقف الاقتصادي اللااخلاقي الذي ينطوي وراء ذلك . وفي الحقيقة ان كامو يمتدح بصفة عامة البواعث الاخلاقية التي كانت تدفع بماركس لهذا القول . ويذكرنا كامو بان ماركس هو القائل (ان الغاية التي تتطلب وسائل غير عادلة لا يمكن ان تكون غاية عادلة) . ثم لا يلبث كامو ان يعترف ـ وهذه هي النقطة الاساسية عند كامو ـ بان تطبيق الماركسية منذ الثورة الروسية يدعو الى النقد اللاذع . فالمبدأ الاخلاقي الذي اشرنا اليه توا ، قد تجاهله تجاهلا شائنا ، اولئك الذين عنوا بوضع النظرية الماركسية موضع الواقع الفعال . فالتطبيقات الماركسية

صدر عن : دار بيروت ـ دار صادر

مجموعة ديوان العرب

تصدر باشراف لجنة من المحققين

صدر منها	ق.ل.
١ ـ ديوان المتنبي	١٠٠٠
٢ ـ « ابن الفارض	٥٠٠
٣ ـ « عبيد بن الابرص	٤٠٠
٤ ـ « امرىء القيس	
٥ ـ « عنترة	٥٠٠
٦ ـ « عبيدالله بن قيس الرقيات	٦٠٠
٧ ـ شرح المعلقات السبع	٣٠٠
٨ ـ سقط الزند لابي العلاء	٦٠٠
٩ ـ ديوان ابي فراس الحمداني	٧٠٠
١٠ ـ ديوان عامر بن الطفيل	٣٥٠
١١ ـ ديوان الخنساء	٣٥٠
١٢ ـ ديوان النابغة الذبياني	٣٥٠
١٣ ـ ديوان زهير بن ابي سلمى	٣٠٠
١٤ ـ ديوان جرير	١٠٠٠
١٥ ـ ديوان ابن حمديس	١٥٠٠
١٦ ـ ديوان الفرزدق جزءان	١٧٥٠
١٧ ـ ديوان ابن زيدون	٦٠٠
١٨ ـ ديوان اوس بن حجر	٦٠٠

قد سمحت للسياق التاريخي بان يبتلع العدالة . ومن ثم تجردت التطبيقات الماركسية من اي تبرير اخلاقي رصين مباشر . ومع ذلك ، يرى كامو ، شانه في ذلك شان نتشه ، ان عددا كبيرا من الاسباب التي ادت الى التفسخ الاخير كامنة في النظام الذي اقامه ماركس ذاته ... فلقد اثبت هذا النظام ، بانه نظام لا يمكن الاخذ به ، نظرا لما ينطوي عليه من تناقضات . فبمجرد ان كشفت الاحداث التاريخية عن تلك الاخطاء في هذا النظام ، تبنى هذا النظام اكثر فاكثر اساليب لا اخلاقية ، في محاولاته من اجل انقاذ ما يمكن انقاذه من مثل ماركس النهائية . وحيث ان معظم تنبؤاته التاريخية المباشرة ، قد ثبت انها غير دقيقة ، فقد اكد باشد الوسائل تأثيرا ، بان نبوءاته البعيدة المدى ستتحقق . ويشير كامو في تعليقاته ، الى التناقضات الكامنة في تفكير ماركس . ثم يتقدم بعد ذلك ، ليقدم لنا ايضاحا عن الطريقة التي اخفق فيها كثير من النظريات عند وضعها موضع التطبيق .

وبالرغم من مزاعم ماركس بان نظريته علمية ، الا ان العكس هو الصحيح . فطريقته خليط متناقض من الحتمية والتنبؤ ، ومن التحليل العملي والحلم الطوباوي . ان نقده لاي مجتمع راهن يعتمد على اسس علمية ، ولكن سرده لتطورات المجتمع في المستقبل لم تكن سوى افتراضات تقريبا . كما ان هناك تناقضا قائما بين نظرياته المتعلقة بالمادية ونظرياته المتعلقة بالديلكتيك . ويوضح لنا كامو اخفاق الديلكتيك في دعم ما يذهب اليه ماركس من ان الفكر يقرره واقع مادي سابق . ويثير الديلكتيك نفسه ضربا اخر من ضروب الصراع الذي ثبت انه اشد خطورة عند التطبيق وذلك يجعل التطور الكامل للراسمالية امرا لا مناص منه في تحقيق السعادة البروليتارية والعدالة النهائيتين . وعن حتمية السياق الديلكتيكي ، تنشأ حيرة بسبب الاستنتاجات السلبية والايجابية التي يبدو ان ماركس كان يستنبطها في اوقات متفاوتة . وليس هناك من سبب واقعي يدعو للافتراض بان ديلكتيك التاريخ ـ ان صح القول بانه حقيقة واقعة ـ له نهاية منظورة خلال الزمان . بكلمة اخرى ، ان طبيعة ديلكتيك التاريخ ذاتها ، تبدو وكانها هي التي تنقض مزاعم ماركس نفسه ، القائلة بان صراع الطبقات سيوضع له حد ويحل محله مجتمع لا طبقي . واخيرا فان الشكل الذي يمكن اخذه عن سيطرة البروليتاريا على الحكم ، قد وصف بتعابير متناقضة في مختلف المؤلفات ، وان ماركس قد ترك هذه الامور دونما حلول .

واذا كانت الاستدلالات النظرية عند ماركس تنطوي على مثل هذه التقلبات والترنح ، فان تطبيقاتها العملية قد اظهرت اخطاء اشد وضوحا وبروزا . ومثال ذلك ، ان المجتمع لم يتطور بحسب الخطوط التي تنبأ بها ماركس ، الامر الذي جعل تطبيق نظامه امرا مستحيلا بشكله الاصلي الكامل . فالاساليب التي كان قد استنكرها ، عادت فاصبحت موضع التطبيق لكي يعالج ذلك الاخفاق المباشر الذي منيت به . هذا في الوقت الذي كان يؤكد فيه ماركس بان جميع تنبؤاته ستتحقق . ويقلل ماركس في تحليله للمجتمع ، اهمية الدور الاقتصادي الذي يلعبه الفلاحون . وكنتيجة لذلك ، اصبح الكولاك الروس الذين يبلغ تعدادهم خمسة ملايين مجرد استثناءات تاريخية . وفي ثورة ١٩١٧ قضى الماركسيون على هؤلاء ، اما بالقتل او التهجير ، باعتبار ان ذلك كله من وسائل التوفيق بين هؤلاء وبين النظرية الماركسية . ويثبت ماركس ، مرة اخرى انه على ضلال تام . اذ يظن ان التضامن البروليتاري العالمية هو اشد قوة من القومية ، على ان فشل الاممية الثابتة قد برهن العكس تماما . واخيرا، فان التعجيل الرائع المفاجيء في التقدم التكنيكي قد ابرز شكلا جديدا من اشكال قمع الطبقة العاملة ، وذلك ما لم لحظه ماركس .

وكان ماركس قد لاحظ ايضا بان المال والقوة العسكرية هما الوسيلة الوحيدة لقمع البروليتاريا . بيد انه لم يضع اي تحوط بشأن طغيان « حكومة الفنيين » التي يخضع لها العمل ، كما ان تلاميذه المتأخرين لم يفعلوا ذلك ايضا .

ان هذا الترنح وهذه الحسابات الخاطئة ، هي التي تثقل ، بشكل خطير ، كاهل الفلسفة السياسية لماركس ، ومن هنا ينبغي ان تكون هناك اساليب جديدة ليجري العمل بمقتضاها . ولعل ابشع نقد وجه الى ماركس ، هو ذلك النقد الذي يذهب الى ان هذه الاساليب الجديدة لها ما يبررها في اعادة تفسير العناصر الاخرى التي يحتويها مذهب ماركس . على ان النظرية الشيوعية وتطبيقاتها التي برزت نتيجة لذلك كله ، فقد اتجهت الى هاتيك الملامح التي تتسم بها الماركسية المعاصرة اليوم ، والتي يرثي لها كامو ويعتبرها خيانة مطلقة للتمرد الاصيل . وتنتهي كل هذه الملاحظات التي يبديها كامو على الماركسية باعادة تقرير الخلافات القائمة بين التمرد الميتافيزيقي والثورة السياسية !

« التمرد يتطلب وحدة ، اما الثورة التاريخية فتتطلب شمولا . الاول يبدأ من (لا) مرتكزة على (نعم)، اما الثانية فتبدأ من نقض مطلق ، اذ هي تحكم على نفسها بكل شكل من اشكال العبودية من اجل ان تخلق تأكيدا متحولا حتى نهاية العبودية من اجل ان تخلق تأكيدا متحولا حتى نهاية الزمان . الاول خلاق ، اما الثانية فنهليستية .»

وقبل ان يصل كامو الى تعليقاته النهائية على طبيعة التمرد ، وكيف ان على هذا التمرد ان يصون نفسه ازاء التطرف السياسي ، يبدأ بوصف العلاقة القائمة بين التمرد والخلق الفني ، وان ما قام به كامو في هاتيك الصفحات الاخيرة لهو اعادة فحص بعض الاخفاقات السياسية التي وضعت آنفا . وتؤكد اعادة الفحص هذه اخطاء التمرد لعصر ما بعد المسيح ، وهي اخطاء التطرف التي كان كامو قد وجه اليها النقد منذ عهد المركيز ساد فصاعدا . بيد ان هذه النقائض السياسية توضح ، بالنسبة لكامو على الاقل ، ان التمردلعصر ما قبل المسيح ، وهو ذلك التمرد الذي عبر عنه العالم القديم، كان يحتفظ بملامح التحديد والاعتدال الضرورية لحل تلك المعضلات السياسية التي يناقشها كامو نفسه . لذا فهو يدافع في النهاية عما يسميه « بافكار الظهيرة » كمصدر من مصادر الانبعاث الروحي والسياسي . ويعالج ذلك بخصائص فيها اخلاص لاصوله المتوسطية(*) ولذلك العالم الذي رسمه في كتابيه « الجهة والموضع » و « الاعراس » .

وهنا ينشأ تساؤل هو هل ان على المرء ان يفكر ، بعد ذلك ، بالتمرد بسبب ما آل اليهمن انحطاط عند ممارسته . اذ نجد انه بمجرد ان تتخذ الاجراءات السياسية لجعل التمرد حقيقة واقعة ، فان جميع تلك القيم التي سبق ان طبعت هذا التمرد بالطابع الاخلاقي قد اجلت او ضاعت في متاهة المستقبل المفروض . وعندئذ تستبدل القاعدة القائلة « انني اتمر د، اذن سنكون » بالقاعدة القائلة « انني اتمرد اذن نحن موجودون»(**).ويكون نتاج ذلك كله العبودية والعنف .ولقد ثبت

(*) نسبة الى البحر المتوسط . «المترجم »

(**) اي يؤخذ بالقاعدة الاولى وترفض الثانية . راجع الاية الكريمة « اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير » .

ان العنف كان دائما معضلة بالقياس الى العبث . ولكن على اية حال ، تظل في هذه المرحلة صعوبة يمكن نفيها على اسس منطقية (او هكذا كان يظن كامو على الاقل .) ولكن التمرد لا يلبث ان يتحول الى معضلة اخلاقية ملحة بمجرد ان يأخذ شكل عنف الثورة ، حتى لتبدو تلك المعضلة كما لو انها تستعصي على اي حل عملي . وهنا يبدو التمرد ازاء حيرة لا تقهر . فللتمرد فكرة واضحة عن العدالة ، غير انه يجد نفسه مقترفا افعال الظلم باسم العدالة ، وهو يطمح الى الخير ، غير انه يجد نفسه مستخدما الاساليب الشريرة التي تجعل من المستحيل تحقيق الخير ، وتقوده فكرته عن الحرية الى ارساء قواعد العبودية ، ويظل النظر والعمل يناقض احدهما الاخر بالرغم من محاولات التمرد للتوفيق بينهما .

وهذه التناقضات تستتبع مجموعتين من النقائض السياسية هما العنف واللاعنف ، والعدالة والحرية . ويتطلب التمرد ، من حيث المبدأ ، استهجان العنف بدافع من احترام الحياة الانسانية . بيد ان الثورة التي اعطت فكرة التمرد التعبير السياسي قد استمدت اصولها وطبيعتها من مبدأ العنف . وهكذا نجد ان على المرء اما ان يستهجن التمرد ثم يفض الطرف عن الشر او ان يختار التمرد ثم يقترف الشر. ومرة اخرى نجد العدالة والحرية هدفين من اهداف التمرد والثورة على السواء . ولكن يتحتم على الثورة ان تقمع حرية الطبقة التي بيدها الحكم لكي تحقق ، على الاقل ، العدالة لانصارها . واخيرا فان على الثورة ان تنكر العدالة على كل مناهض للثورة اذا ما ارادت ان تحتفظ بالحرية لانصارها . ومن هنا نجد تناقضا لا يمكن التغلب عليه بين المطاليب الاخلاقية ومطاليب الثورة العملية .

ان هذه الحيرة وتلك التناقضات من شانها ان توقفنا موقفا لا نحسد عليه ، علينا ان نختار فيه بين العقم الاخلاقي عند « اليوغي » والنزعة الاخلاقية الكلبية عند « القومسير » (*) وفي هذه النقطة ، نجد كامو يعود ادراجه الى فكرته عن التمرد .

وهو يزعم ، ان امثال هذه المعضلات تنشأ لان هناك تجاهلا لتأكيد الحدود ، وتجاهلا للاعتدال الملازم للتمرد الاصيل . ومثل ذلك ان الحرية التي يطالب بها المتمرد هي ليست حرية شاملة . بل على العكس من ذلك ، ان المتمرد يقوم برد فعل تجاه الحرية غير المحدودة التي تمارسها احدى السلطات ضده . وان تمرده بالذات هو الذي يضع حدود حريته . ويقول كامو :

« لا ريب في ان المتمرد يطالب بحرية معينة لنفسه ، ولكنه لا يطالب، تحت جميع الظروف ، بمنحه حق تدمير الناس وتدمير حريات الاخرين ، هذا اذا ما كان المتمرد متماسكا على نفسه . انه لا يهين انسانا . فالحرية التي يطالب بها ، انما يطالب بها لاي انسان اخر . وان ما يرفضه يمنع الاخرين من ممارسته . هوليس مجرد عبد يعارض سيده، ولكنه انسان يعارض عالما من الاسياد والعبيد . »

وها قد اضيفت هنا قيمة اخرى الى هاتيك القيم التي سبق ان تشققت عن التمرد ، تلك القيمة هي « الاعتدال » . وهذه القيمة هي بالضبط القيمة التي تجاهلتها الثورة السياسية على الدوام . فالتطرف سمة الثورة وطابعها ، وقد تسبب في حيرة غير ضرورية ولكن لا مناص منها في الوقت ذاته . فتاليه التاريخ مثال ناصع من امثلة التطرف في المواقف . فتاليه التاريخ هذا لا يعتبر مجرد خيانة للتمرد ، بل ان كامو يرى فيه استحالة منطقية . فهو يرى ، مع ياسبرز ، ان من المستحيل ان يدرك الناس التاريخ ادراكا شاملا ، لانهم هم جزء من التاريخ . انهم لا يستطيعون ان يقفوا بمعزل عن التاريخ ليحكموا عليه ويفسروه بشكل معصوم عن الخطأ . وفي الحقيقة ، ان القول بانه « ليس هناك في النهاية من تاريخ ، الا من اجل الله » ما هو الا جزء من وجهة النظرة هذه . وهكذا نجد انه طبقا لما ذكرناه يستحيل على الناس ان يحققوا مشاريع تحتضن شمول التاريخ . فكل فعل يقع في الزمان ، مهما كانت الاهداف او النظريات التي يستهدي بها ، ينبغي ان يشتمل على عنصر كبير من الشك ، وهذا الهامش الذي لا مناص منه ، والذي قد يحتوي الاخطاء ، يجعل النزعة التعيينية والصرامة غير العملية باسرها اورا لا مبرر لها .

فالتمرد المرتكز الى « فلسفة الحدود » ينطلق الان ليكون وسيلة من وسائل تقرير النقيضين السياسيين اللذين ذكرا اعلاه . وقبل كل شيء هناك مسالة العنف واللاعنف . فالعنف الذي يخون التمرد انما يفعل ذلك لانه منسق ، ومن شانه ان يجعل الناس مجرد ادوات في خدمة الهدف التاريخي البعيد . اما بالنسبة للمتمرد فانالعنف يجب ان يفترض بانه مسؤولية فردية لا يمكن ان تخدم عقيدة من العقائد التجريدية لذا فالتمرد لا يشهر السلاح الا من اجل ازاحة العنف واجتثاث اصوله ، لا من اجل تشريعه وتقنينه . ومثال ذلك ، ان كامو ينادي بان الثورة لا تستحق ان يموت المرء من اجلها ، وليست للثورة اية ذريعة لاخذ الحياة الانسانية ، ما لم نقدم مباشرة على الغاء العقوبات الكبرى. وفي داخل سياق التمرد الاصيل نجد ان العنف يبرره قيام اللاعنف بعد ذلك ، وينبغي الا يكون الا من اجل تحقيق هذا الهدف .

وهناك حجة اخرى تشبه هذه الحجة يستخدمها كامو بشان العدالة والحرية ، فالتمرد الاصيل ، بادراكه للحدود ـ يؤكد النسبية بشان العدالة والحرية . ففي هذا المعنى من معاني النسبية ، يجب ان تكون تلك المجاميع من الاهداف ، اهدافا تقريبية وحسب . ولكي يكون هذا « التقريب » اكثر ما يمكن من الدقة ، فان على التمرد الواضح العالم ان يسمح بالتعبير الحر عن الاراء . وبهذه الوسيلة يكون التمرد قد قدم قوة يسند بها التضامن الانساني الذي يبرره . وفي هذه الحال، سيضمن التمرد التعبير الدائم عن العدالة باعتبارها فكرة من الافكار المشروعة . وستصبح العدالة حقيقة متنامية بسبب توافر امكانية الاحتجاج وتوافر التوصيل الانساني الاصيل . اما العدالة المطلقة والحرية المطلقة فأمران غير مناسبين . ولكن العدالة النسبية والحرية النسبية ستقودان بالتالي الى الانسجام بينهما من جهة وبين مقياس كل منهما من الجهة الاخرى ، هذا اذا ما كرستا من اجل الحفاظ على قيم التمرد ذاته .

ويفتتح التمرد الاصيل المجال الذي ينتهي بالمرء الى ان يقف سالما بين موقفي التطرف « لليوغي » و « القومسير » . ويحافظ التمرد ايضا على المطامح الاخلاقية للثورة السياسية في تطبيقاتها اليومية . ولكي يتحقق ذلك كله ، فعلى التمرد ان يسلط عدسته على « فلسفة الحدود » التي نجد اصولها في الفكر الاغريقي ، لا في التمرد الميتافيزيقي

(*) « اليوغي » من يمارس « اليوغا » رياضة التأمل . والكلبية Cynicism نزعة الشك في القيمة النهائية للحياة . الاول كناية عن موقف المثقفين التأملي السلبي ، والثاني عن البيروقراطية في العصر الحديث .

«المترجم»

الذي ساد القرنين الماضيين. ولهذا السبب نجد ان كامو يمتدح ما يسميه « بالافكار المستوحدة » او « روح البحر المتوسط » . وهذا التقليد المتوسطي(*) الموروث ، بالدرجة الاولى ، من المفكرين التقدميين الايطاليين والاسبان والفرنسيين قد غامت عليه الايديولوجية الالمانية والنزعة التاريخية ، ثم تغلبتا عليه بعد ذلك . (هيغل ، نتشه ، ماركس، انغلز الخ...) وبالتالي فان كامو يعتبر الصراع الحاسم في عصرنا هذا هو غير قائم بين الماركسية والمسيحية ، بقدر ما هو قائم بين !

« .. الاحلام النوردية (**) والتقاليد المتوسطية ، بين العنف اليافع ابدا والقوة الناضجة ، بين الحنين الرازح الثقل عن طريق العلم والكتب ، والشجاعة الملطفة المخففة عن طريق العلم والكتب ، والشجاعة الملطفة المخففة عن طريق تجارب الحياة ، وبالاختصار بين التاريخ والطبيعة . »

فالتمرد الذي يستمد مطامحه من التقاليد المتوسطية ، يمكن ان يكون تمردا فعالا ، باعتباره مثالا من الامثة السياسية ، ذلك لان القيم التي يكشف عنها ليست محض تجريدات وحسب . فالكرامة والاخوة اللذان يكشف عنهما ، والاعتدال الذي يشترطه ، كلها قيم مدينة بوجودها الكامل لافعال الناس وتجاربهم الشخصية في التمرد . ولا يزعم التمرد الاصيل ان هذه القيم كانت قائمة منذ الازل ، او انها ستظل قائمة في المستقبل ، التمرد ينظر الى هذه القيم جميعها كواقع راهن يمكن ان يحتفظ بها ادراك التوتر ، ذلك الادراك الذي لا يناله الوهن ، كما تحتفظ بها ممارسة الاعتدال وهما (اي ادراك التوتر وممارسة الاعتدال) من الخصائص الجوهرية في التمرد. ويشير كامو الى النقابية ـ الثورية باعتبارها مثالا على الممارسة الثورية التي تعمل على صيانة قيم الفرد. والنقابية الثورية حركة ما زال لها انصارها في فرنسا، وهي تمتلك صحيفة تنطق بأسمها . وجوابا على الاتهامات التي وجهت الى النقابية الثورية ، والتي تذهب الى القول بانها خلو من اي تأثير سياسي ، يقول كامو بان هذه الحركة يعزى اليها امر تحسين الظروف العمالية ، ويرى فيها اداة من شأنها ان تحول ساعات العمل الست عشرة في اليوم الى اربعين ساعة في الاسبوع . ويقول كامو ، بان هذه الحركة مستندة الى وقائع انسانية واقتصادية تجاهلتها الماركسية المتطرفة غير العملية. وان « التدرجية » العميقة الاصول ، في هذه الحركة ، قد افادت السعادة الانسانية باكثر مما فعلته المادية الديلكتية انها تعمل باتجاه معاكس للاتجاه الذي تسير فيه الماركسية ، منطلقة من الخاص الى العام ، من الناس الواقعيين الى الافكار التجريدية ، من العمل الى النظر . وهكذا نجد انه حتى النقابية ـ الفوضوية ، تحاول ان تتجنب الارهاب ، ان تتجنب الاستعباد واذلال الانسان ، وهما ذانك الخاصتان اللتان طبعتا الثورة بطابعها منذ اكثر من مائة وخمسين عاما . وهي تتجنب ذلك ، ان لم تتجنب العنف دائما ولكن كامو يؤكد على انه لا يطرح النقابية باعتبار انها حل كامل نهائي. انها عنده ليست سوى محض مثال يضرب على التفكير السياسي وعلى العمل اللذين يتطلبهما الوقت الراهن . والنقابية تعكس جوهر الحكمة المتوسطية ، لانها تتخذ لها موقفا على واقع كونكريتي ، يتضمن الفكرة السليمة عن الكرامة والحدود الانسانيتين . وعن طريق ذلك ، بوسعنا ان نستعيد الى اذهاننا القول بان الحكمة السياسية يجب ان تنبعث من حب الانسان من حيث هو انسان . وينبغي ان تتصف هذه الحكمة برباط يشدها الى رخاء الانسان حاليا . اذ على هذه الحكمة ان ترفض جميع الايديولوجيات التي تضحي بالسعادة الراهنة ، من اجل وعود غير عملية تتحقق في المستقبل .

ترجمة

محيي الدين اسماعيل

من رابطة الادباء العراقيين الاحرار

القاهرة

(*) نسبة الى البحر المتوسط

(**) الشمالية ـ شمال اوروبا «المترجم »

مُسابقاتُ «الآداب»

يسر مجلة « الاداب » ان تعلن عن اقامة ثلاث مسابقات سنوية لاختيار :

١) افضل رواية عربية

٢) افضل ديوان شعر

٣) افضل دراسة ادبية

شروط المسابقة

١) يحق لجميع ادباء العربية ان يشتركوا في هذه المسابقة .

٢) يقدم الكتاب مخطوطة الى ادارة المجلة باسهم الكاتب الحقيقي .

٣) يشترط الا يكون الكتاب قد نشر قبل الان . ولا مانع من ان يكون قد نشر في الصحف والمجلات .

٤) لا تحديد لموضوع الرواية او الدراسة او الديوان.

٥) تقبل المخطوطات حتى اخر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٠ وتتألف ثلاث لجان تحكيمية يعلن عنها فيما بعد على ان تصدر احكامها وتعلن نتائج المسابقات في عدد كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٦١

٦) يمنح كل من الرواية والديوان والدراسة الفائزة جائزة قدرها الف ليرة لبنانية او ما يعادلها .

٧) تعود حقوق نشر الكتاب الفائز الى « دار الاداب » ولا يتقاضى المؤلف حقوقا اضافية على الطبعة الاولى التي لا تزيد على ثلاثة الاف نسخة .